

The duality of the countryside and the city and the transformation of meaning the novel "the South Wind" by Abdul Hamid bin hadduga as model

Dr. gadoum hamida ¹

¹: Emir Abdelkader University of Islamic Sciences Constantine, Algeria, hamida.gadoum@univ-emir.dz

Received: 06/09/2024, Accepted: 05/12/2024, Published: 14/02/2025

Abstract:

In its presentation of the city, this study relies on the novel "The Wind of the South" by Abd al-Hamid Ibn Hadouga, as it is the first Algerian experience written in the Arabic language. Its events take place in two different spaces, constructive, thought and philosophy of life. This is according to three axes; The first: the presence of the city in the modern Arabic novel. the second: the duality of the countryside and the city in The South Wind, and finally: the transformations of meaning in The South Wind; The latter is divided into two parts: A- The countryside, from shelter to exile. B-The city and the obsession with freedom.

The apparent difference between the two spaces (the countryside/the city) led to the need to trace the transformations of meaning resulting from the intellectual, civilizational and cognitive difference within a coherent binary that the novelist recounts in a way that reveals the influence of the city in building the personality as a space of science, freedom and intellectual openness, on the one hand, and how the countryside transforms For the character from shelter to exile as a space of ignorance, isolation and poverty.

Keywords: The city. The countryside. meaning shifts. the novel. modernity.

ثنائية الريف والمدينة وتحولات المعنى،

رواية "رياح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة أنموذجا

د. حميدة قادوم ¹

¹: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، hamida.gadoum@univ-emir.dz

ملخص:

تعتمد هذه الدراسة في طرحها لموضوع المدينة على رواية "رياح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة باعتبارها أول تجربة جزائرية مكتوبة باللغة العربية، وتدور أحداثها في فضاءين مختلفين بناء وفكرا وفلسفة في الحياة. وذلك حسب محاور ثلاثة؛ أولها: حضور المدينة في الرواية العربية الحديثة. وثانيها: ثنائية الريف والمدينة في ريح الجنوب، وأخيرا: تحولات المعنى في ريح الجنوب؛ وينقسم هذا الأخير إلى قسمين: أ- الريف من المأوى إلى المنفى. ب- المدينة وهوس الحرية. أدى الاختلاف الظاهر بين الفضاءين (الريف/المدينة) إلى ضرورة تتبع تحولات المعنى الناتجة عن الاختلاف الفكري والحضاري والمعرفي ضمن ثنائية متلازمة يسردها الروائي بشكل يكشف من خلاله عن تأثير المدينة في بناء

الشخصية بوصفها فضاء للعلم والحرية والانفتاح الفكري، هذا من جهة، وكيف يتحوّل الريف بالنسبة للشخصية من المأوى إلى المنفى بوصفه فضاء للجهل والعزلة والفقر.

الكلمات المفتاحية: المدينة-الريف- تحولات المعنى- الرواية- الحداثة.

مقدمة:

يشكّل الفضاء المكاني في الرواية العربية الحديثة عنصراً مهماً في نسج خيوط السرد من جهة، وبناء الشخصية من جهة أخرى، وتختلف الفضاءات المكانية باختلاف موضوع السرد وتشكّل دلالاته الفنية، ومن الفضاءات المكانية البارزة في الرواية العربية، فضاء المدينة الذي شاع منذ الثورة الصناعية.

وقد ساهمت المدينة بوصفها معطى حضارياً في بناء النصّ الروائي الذي شهد قفزة نوعية وتطوّراً رهيباً بعد الحرب العالمية الثانية، والمدينة باعتبارها ظاهرة حدائثة ومفهوماً حضارياً يتجلى غالباً في مقابل فضاء الريف الذي يختلف في بنيته المعمارية وفكر أصحابه ومعتقداتهم، وتفسيراتهم، ومواقفهم تجاه الحياة.

تعتمد هذه الدراسة في طرحها لموضوع المدينة على رواية "ريح الجنوب" ل(عبد الحميد بن هدوقة) باعتبارها أول تجربة روائية جزائرية مكتوبة باللغة العربية، وتدور أحداثها في فضاءين مختلفين بناءً وفكراً وفلسفة في الحياة.

وذلك حسب محورين اثنين؛ **أولهما: حضور المدينة في الرواية العربية الحديثة. وثانيهما: ثنائية الريف والمدينة**

وتحوّلات المعنى؛ وينقسم هذا الأخير إلى قسمين:

1- الريف من المأوى إلى المنفى. 2- المدينة من الضياع إلى الحرية.

أدّى الاختلاف الظاهر بين الفضاءين (الريف/المدينة) إلى ضرورة تتبع تحولات المعنى الناتجة عن الاختلاف الفكري، والحضاري، والمعرفي ضمن ثنائية متلازمة يسردها الروائي بشكل يكشف من خلاله عن تأثير المدينة في بناء الشخصية بوصفها فضاء للعلم والحرية والانفتاح الفكري، هذا من جهة، وكيف يتحوّل الريف بالنسبة للشخصية من المأوى إلى المنفى بوصفه فضاء للجهل والعزلة والفقر.

1. حضور المدينة في الرواية العربية الحديثة:

إنّ الحديث عن تيمة المدينة في الرواية العربية حديث متشعب وواسع، لأنّه يفرض على الباحث الغوص في تاريخ ظهورها بوصفها فضاء متميّزاً يختلف عن الريف، فظهورها ضرورة أملتّها التحوّلات والتطوّرات التي شهدتها العالم بعد الثورة الصناعية، لذلك فهي تعني؛ الحضارة الصناعية وتقدم العمران وارتفاع الكثافة السكانية بها نظراً لقدرتها على توفير حاجيات السكان من نقل ومؤسسات اجتماعية ووسائل متطورة جعلها تختلف جذرياً عن فضاء الريف الذي يتميز بالبساطة والهدوء وانعدام الوسائل المتطورة لتلبية حاجيات قاطنيه.

لذلك تعتبر المدينة " مهد الحضارة ورمز تقدم الأمة واستقرارها، والبيئة التي تنمو فيها الثقافات وتزدهر في حداثتها العلوم والفنون، وهي صورة الأمة، نقرأ فيها أخلاق أهلها ومثلها وقيمها، وعلى هذا فحضارات الدول هي حضارات مدن في الغالب، والتاريخ منذ القدم مازال يكتب في المدن (...) فهي تلاقي قوى لأنها تجمع بشري، وهي ظاهرة إنسانية حضرية عامة ترتبط بالتحضر. " (عبيدات.2007. ص13)

وقد ذكرت المدينة في القرآن الكريم بوصفها مركزا للتجارة والبيع، ويظهر هذا المعنى جليا في قوله تعالى " فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه." (سورة الكهف. الآية 19 و20)، كما أبدع الخالق سبحانه وتعالى في وصف المدينة بدقة عالية، وأشار إلى طبائع الناس فيها مما يستوجب التلطف والحذر مع أهلها على عكس الرّيف الذي يتميز أصحابه بالطيبة والتعامل الطبيعي دون تكلف في الأمر، فيقول تعالى " وليتلف ولا يشعرن بكم أحدا إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تغلحوا إذا أبدا." (الآية 20). وقد أشار إلى هذه المعاني الباحث (قادة عقاق) في كتابه (دلالة المدينة في الخطاب الشعر العربي المعاصر، ووصل به البحث إلى فكرة المدينة في القرآن الكريم. (عقاق.2001. ص30/29).

أما في الرواية العربية الحديثة فقد خرجت المدينة كمصطلح من كونها مفهوما جغرافيا وهندسيا إلى كونها مفهوما تخيليا يجسد مواقف المبدعين تجاهها بما يحمله من دلالات متناقضة، فقد تكون ملجأ بعض الروائيين وقد تكون فضاء للخذلان والانكسارات لدى البعض الآخر، خاصة عند ارتباطها بعنصر الزمن الذي لا يمكن أن نفصله عنها مهما حاولنا، فلكل مدينة زمنها الخاص وسكانها المميزون.

لذلك " يبدو أنّ قارئ مدونة الرواية العربية الجديدة لا يجد فيها مدينته على غرار ما يجد القارئ الفرنسي أمكنة ومعالم من باريس في رواية "أحدب نوتردام" لفكتور هوجو على سبيل المثال حيث نهضت فيها مفردات مدينة باريس العمرانية فاعلا في الحدث السردى وموجها له، بينما ظلت المدينة العربية حاضرة في الروايات أسماء باهتة لمحات وشوارع وأحياء ومعالم، وليست حاضرة باعتبارها كيانا يؤاخي كينونات الناس أو يفكر بها في الحديث السردى نفسه. " (صورة المدينة في الأدب الروائي. [الشابكة] مجلة فكر الثقافية

< <https://www.fikrmag.com> > بتاريخ: الأربعاء 4 يناير 2023.

وعليه، تحضر المدينة في المدونة الروائية العربية بمعان ودلالات كثيرة ومهما يكن الوضع الذي ترد عليه، فإن الإقرار بحتمية توظيفها أمر لا مجال للنقاش فيه، حيث نجدها في كل أشكال حضورها معبرة عن حال الشخصيات الروائية من جهة وموقع الكاتب من الواقع من جهة أخرى، ومما لا شك فيه أن المدن الروائية تعبير عن ظروف روحية ومادية واجتماعية وسياسية لشخصية أو شخصيات أنتجت علاقات اجتماعية بينها.

ويندرج الاهتمام بموضوع المدينة في الرواية العربية الحديثة انطلاقاً من وعي الأديب بها، وبأهميتها في تشكّل المسار السردى للشخصيات، ويكون الاهتمام بالمدينة التي يختارها الكاتب بناءً على أهميتها ومكانتها في ذاكرته أو في متخيله، وغالباً ما تكون المدينة محل الاهتمام لها علاقة بحادثة ما عانى منها الكاتب أو باعتبارها فضاء يسكنه ويحقق من خلاله أحلامه، كما قد تكون فضاء يلجأ إليه من أجل القيام بالتغيير أو الوعي بمجال الحرية التي يبحث عنها، ذلك أنّ "لكل مدينة شخصيتها وروحها المميزة لها عن غيرها من المدن الأخرى تبعا لتمييز عادات وتقاليد وحاجيات ساكنيها ونشاطاتهم وحتى موقعها الطبيعي انغلاقاً وانفتاحاً" (عقّاق. 2001. ص19)

وفي ظلّ التطور الأجناسي الرّهيب الذي يشهده الأدب العربي في الآونة الأخيرة أثبتت الرواية تفوّقها على باقي الأجناس الأدبية الأخرى، فبدأ من الطبيعي أن تستأثر الرواية بقدرتها على اكتناه معنى المدينة أو فكرتها الجوهرية، تركيباً بوصف طريقة التركيب سبيلاً لإنتاج المعنى، فالرواية قائمة على أساس التّنوع والتراكيب اللّذين يسمان مدينيّة أي مدينة. (صالح. 2014. ص38)

وبما إنّ المدينة موضوع استأثرت به الرواية الحديثة، والحادثة حركة أدبية فلسفية غربية، فإنّه من الطبيعي أن تكون تيمة المدينة ذات منطلقات غربية أوروبية باعتبارها وسيطاً مباشراً لها، وهذا ما يؤكده (مالكوم برادبري) بقوله "إنّ المدن هي الأماكن الطبيعية للحادثة" (برادبري. 1995. ص103)

لذلك تعتبر المدينة فضاء واسعاً ومناسباً لانتشار موجة الحادثة، خاصة ما تعلّق بالمدن الأوروبية وما شاع فيها من تطوّر فكري، وعلمي، وفلسفي يذكّرنا "بأجواء مدن برلين وفيينا وموسكو وسان بطرسبرغ في نهاية القرن الماضي (التاسع عشر) وإلى السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى، كما نجد تلك الأجواء في مدينة لندن في السنوات التي سبقت الحرب ومدن زيورخ ونيويورك وشيكاغو في سنوات الحرب وفي مدينة باريس في كل الأوقات." (برادبري. 2014. ص104)

ثم انتقلت هذه الظاهرة إلى الرواية العربية الحديثة لتحمل أبعاداً فكرية وأخرى فلسفية، وأصبح توظيف المدينة بوصفها فضاءً للتطور والتّحضر في مقابل فضاء الرّيف الذي ظلّ يحمل معاني الجهل التّخلف، فظهرت أوّل رواية عربية كتبها (محمد حسين هيكل) تحت عنوان "مناظر وأخلاق في الرّيف" أو "زينب" مستفيداً من معاني القسوة والجبروت الذي يتميّز به الرّيف المصري، ثم توالى بعدها حركة التّجريب السّردى لتوظيف فضاء المدينة بدل الرّيف لأنّ الحادثة بالنّسبة للروائيين أصبحت مرتبطة بالمدينة وأنساق التّحوّلات التي حدثت فيها؛ لذا فهي فنّ المدينة التي استجابت للواقع الجديد، ولما كانت التّحوّلات في داخل تلك المدن تتفاوت في عمقها وحجمها ومدى تقبل الإنسان لها، فقد جاءت حداثات المدن متفاوتة في عمقها واستيعابها بين مدن الحادثة. (إسماعيل. 2011. ص67)

وفي هذا الصّدد، يمكن الإشارة إلى عدد من الروايات العربية التي جعلت من المدينة بؤرة مركزية وقضية حتمية بُني عليها النّص الروائي؛ ومنها رواية (عبد خال) الموسومة "مدن تأكل العشب"، لتعبّر عن حال المجتمع السعودي فيما بعد

الثورة النفطية، ورواية "بيروت مدينة العالم" لربيع جابر، ورواية "بريد بيروت" لحنان الشيخ، ورواية "الزلزال" للطاهر وطاهر، ورواية "سوناتا لأشباح القدس" لواسيني الأعرج، وغيرها.

والمتمتع في هذه النصوص الروائية يدرك جيداً قيمة المدينة التي وظّفها الروائيون، فكل مدينة من تلك المدن تشي إمّا بطابع حضاري أو علمي أو ديني، أو ثقافي، هذا من جهة، كما تعبّر من جهة أخرى عن حال الانسان المعاصر في علاقته بالمدينة الحضارية وما وصلت إليه من تطوّر تكنولوجي أدّى في كثير من الأحيان إلى الانفصال الاجتماعي، كما تولّدت معه طبائع وأخلاق ليست من سمات الانسان العربي الأصل.

ومهمّا يكن الشأن الذي أدّى بالروائي إلى الحديث عن مدينة بعينها، فلا بد أن نشير إلى وجود علاقة روحية مباشرة بينه وبين مدينته، ولعلّ أجمل ما تمت الكتابة عنه في هذا الشأن هو توظيف المدينة باعتبارها تيمة سردية بنائية في مقابل الرّيف الذي يحمل خصائص مناقضة لها، وقد كتب (واسيني الأعرج) عن فضاء الرّيف باعتباره فضاءً مركزيًا ومهمًا في أحداث روايته "ما تبقى من سيرة لخضر حمروش" و"نوار اللّوز" فيبدو كل من الرّيف والمدينة في شكل ثنائية ضدية أفرزتها ظروف خاصة.

مرّ توظيف هذه الثنائية في الرواية الجزائرية بمراحل حسب التّغيرات الاجتماعية والسياسية للبلاد، فكانت فترة السبعينيات بالنسبة للروائي الجزائري زمن الاحتفاء بالرّيف وبأفضاله في مقابل المدينة التي كانت محلّ انتقادات بسبب ما يحدث فيها من فوضى وفساد أخلاقي وتذبذب في العلاقات الاجتماعية. وظلّ الرّيف خلال هذه الفترة الفضاء المناسب للشخصيات الروائية التي تعيش فيه بكل سكينة وروابط اجتماعية متينة.

وبحلول فترة التسعينيات التي عرفت تطوّرًا على مستوى كتابة الرواية الجزائرية، ونظرا لتطور متطلبات الحياة، شهدت الرواية انتقالاً ملحوظاً من فضاء الرّيف إلى فضاء الرواية، وأصبح الرّيف لا يُوظفُ "إلاّ من خلال قَبو الدّأكرة وبفعل تحوُّلات الزمن، وتراكمات الخيال وكيمياء التّخمّر المعقّدة." (النبلسي. 1994. ص 41) بينما احتلت المدينة مكانة أرفع باعتبارها فضاءً للحرية والتّحضّر وتحوّلت معها معاني العلاقات والروابط الاجتماعية.

2. تحوُّلات المعنى في "ريح الجنوب" ل(عبد الحميد بن هدوقة):

تعدّ رواية "ريح الجنوب" ل(عبد الحميد بن هدوقة) أوّل رواية جزائرية مكتوبة باللّغة العربية، عالج من خلالها الكاتب جانبا من الحياة العامة في المجتمع الجزائري والفكر السلطوي الذي توارثته بعض الشخصيات عن الاحتلال الفرنسي الذي عمل على تغيير طبائع النّاس وأخلاقهم ، ودينهم ولغتهم وبذل في سبيل ذلك الكثير .

تدور الأحداث الرئيسية للرواية في الرّيف الذي يعد الفضاء المناسب لما جاء فيها من أحداث خاصة عند ربطها بزمّن الاصلاح الزراعي، لذلك نجدها تعرض منذ البداية فكر الرجل الجزائري المتسلط وتعلّقه بالأرض تعلّقًا حد الموت، وهذا

التعلق هو ما ساعد على تأسيس ما يسمى بالنسق الريفي الذي أصبح يمثل " أنموذجا للتخلف والبعد عن منجزات الحضارة التي حققها النسق المدني نفسه." (السلطة والتّحيزات النّسقية في السرد الروائي. ص217)

وهذا ما يبرز في "رياح الجنوب" حيث يظهر النسق الريفي مهيمنا على الرواية بوصفه فضاءاً للقسوة، والجهل، والعصبية التي أدّت بدورها إلى خلخلة نظام العلاقات الاجتماعية في مقابل النسق المدني الذي يتراءى لنا بوصفه فضاء للحرية والتّقدم الحضاري، وهو ما أدّى إلى تحولات في المعنى الحقيقي لكل منهما.

1.2 تحولات المعنى في الرّيف/ من المأوى إلى المنفى:

طالما مثل الرّيف في المتخيل العربي فضاءً للجمال، والهدوء، والأخلاق الفاضلة التي يتقدّمها التسامح والتّعاون بين أفرادها، والرّيف على بساطته كان دوماً ملجأً للشعراء والأدباء، ومصدر إلهامهم الوحيد " والشائع أنّ التّقاليد الأدبية والفنية عربية كانت أو غربية تمجد القرية، وتتغنى بطبيعتها الأخاذة على حين تتال من المدينة وتذم أحياءها الصناعية القذرة، فالرّيف في معظم الأعمال الشعرية والنثرية يمثل منشأ الحياة البشرية القريبة من الطبيعة حيث الهواء النقي، والمياه العذبة، الخضرة الشاسعة والمناظر الخلّابة والعلاقات الإنسانية الحميمة، فالرّيف هو أصل الحكمة، وموطن البراءة، وواهب الصّحة والجمال والسّعادة." (صورة المدينة في الأدب العربي والآداب الغربية[الشابكة] <www.h-rah.blogspot.com> بتاريخ: 2022/03/7

وظلّ الرّيف يحمل هذه القيم الإيجابية فترة طويلة قبل أن يتحوّل إلى قيمة سلبية في حضور المدينة الحديثة، وبالرجوع إلى رواية "رياح الجنوب" التي أخذ الرّيف فيها مساحة واسعة للسرد الذي يمنحه الروائي معاني مضلّة، يتجلى هذا المعنى في شخصية "نفسية" التي تصوّره في أبشع صورة، وتحوّله من فضاء منحها الحياة منذ ولادتها إلى فضاء تنتهي فيه كل أحلامها بعد أن اعتادت على التّرف والحرية في المدينة، ويتحوّل الأصل الطبيعي الذي وُجدت فيه من مأوى إلى مجرد منفى يختزل حياتها في زوج تُزفّ إليه ضدّ رغبتها.

وفي هذا الصّدّد؛ تطرح الرواية قضية بالغة الأهمية، ويلعب فضاء الرّيف فيها دوراً مهماً في تشكيل الصورة النمطية للمرأة الجزائرية في فترة السبعينيات وربطها بقضية (الأرض) التي تصبح المرأة قرباناً لها في مقابل استقادة النسق السلطوي ممثلاً في الأب.

وتمثل شخصية (نفسية) دور الفتاة المتعلّمة التي اطّلت على الجانب المشرق للمدينة الحضارية بعد انتقالها إلى العاصمة، حيث فتحت المدينة عينيها على عالم آخر أكثر تحرراً من الرّيف. وتبدأ مأساتها في الرّيف الذي كانت تعود إليه في كل عطلة دراسية، وهناك كان الفضاء بالنسبة لها يزداد ظلاماً وانغلاقاً حتى تحوّل عندها إلى منفى حقيقي، يهرب منه حتى النّوم، تقول (نفسية) " حتّى النّوم لا أستطيع أن أنام. ليتني لو نمت حتّى تنقضي هذه الشهور، كل شيء هنا يحرم

الخروج. حتىّ الشمس... لكن أيّ فائدة في الخروج إلى الخراب؟ أظنّ القنابل الذرية التي يتحدثون عنها لا تستطيع أن تجعل مكانا أشدّ خرابا من هذه القرية... الصّمت، الصّمت، الصّمت." (بن هدوقة. 2012 . ص60)

يتحوّل الرّيف على لسان (نفسية) إلى فضاء للدّمار والقحط، وهذا التّصوير نابع من حالتها النّفسية التي أصبحت في صراع داخلي نتيجة المقارنات بين الرّيف ومدينة الجزائر العاصمة، فيضيق بها الفضاء على اتساعه ورحابته حتى يصبح **منفى**، نقول "أكاد أنفجر. أكاد أنفجر في هذه الصّحراء، وفاضت عيناها بالدموع، وأردفت قائلة: "كل الطلبة يفرحون بعطلهم أمّا أنا فعتلتي أقضيها في منفى..". (بن هدوقة. 2012. ص09)

ويلعب التّكرار في كلامها دورا وظيفيا في التّعبير عن حالة الرفض للشخصية التي تشبعت بأجواء المدينة وألفت العيش فيها، ويصبح الرّيف حاملا لكل الدّلالات السلبية التي تتوقف فيها حياة المرأة، لأنّ الرجل بإمكانه أن يعيش كما بدّا له دون أي شرط أو قيد، وهنا تطفو إلى السطح قضية أخرى أفرزتها الحياة الرّيفية وهي **(ثنائية الرجل والمرأة)** فالرجل الريفي سيد نفسه ويمارس حياته بكل يسر في حين تعيش المرأة في الرّيف بوصفها عارا يتوجب إخفاؤه في البيت، أو التّخلص منه عن طريق الزّواج، وتعمل هذه النّظرة الدّونية للمرأة على خلق صراع أنثوي ذكوري. وردت بوادر هذا الصراع في الرواية من خلال حديث العجوز مع (نفسية) قائلة: تغارين من عبد القادر؟ ولماذا؟

فتجيبها نفسية بقولها: "لأنّه يستطيع الذهاب إلى السوق أو الخروج إلى حيث أراد أمّا أنا فمئذ جئت من الجزائر وأنا سجينه". (بن هدوقة. 2012. ص42)

والملاحظ في كل أحاديث نفسية أنّها تربط تواجدها في الرّيف بكل عبارات الخذلان، وتركّز في وصفها له (منفى/سجن) وهذا راجع إلى طبيعة المعاملة التي تتلقاها داخل الأسرة، نقول "إنّ أمني تمنعني من الخروج هنا... في هذه القرية الخالية". (بن هدوقة. 2012. ص44)

هكذا تصرّ (نفسية) على وصف حياتها في الرّيف كمن هو في السّجن، وتؤكد على ذلك في الحديث الذي دار بينها وبين العجوز مخاطبة والدتها: "يجب أن تذهب معنا نفسية يا خيرة، الذّار أغلقها كما فعلت أنا، اليوم السوق والدشرة خالية، كل النّاس تسوقوا، يجب أن تذهب معنا، على الأقل لتسرّح رجلها، أليس كذلك يا نفسية؟ فأجابت هذه: أرغب في ذلك يا خالة. أود أن أرى الدنيا، إنّي اختنقت في هذا السّجن". (بن هدوقة. 2012. ص21)

ترجع رؤية (نفسية) السوداوية إلى الرّيف بسبب المعاملة التي تتلقاها من العائلة التي تمنعها من الخروج هذا من جهة، وبفعل العادات والتقاليد التي تحكمه من جهة أخرى، فيحكم عليها بالنّفي والسّجن لا شيء سوى لأنّها امرأة، فتقوم بمقارنة بين وجودها في المدينة ووجودها في الرّيف البائس.

بهذه المعاني، يفقد الرّيف معانيه الحقيقية باعتباره مسقط رأسها، ويتحوّل من مأوى له حميمته الأسرية إلى منفى قاس تتلاشى فيه علاقتها بأسرتها، وتتعدم فيه كل أساليب الحوار والنّقاش من أجل تحديد مصيرها، ويزداد الأمر سوءا

بالنسبة ل(نفسية) ، وبل يتحوّل إلى كارثة حقيقية عند إقرار الأب تزويجها بشيخ البلدية تلبية لمصالحة الشخصية وحفاظا على أراضيها التي يعتبرها أهم من ابنته، حيث يبرز دور الأب السلطوي الذي يقرّر بنفسه مصير ابنته دون أي اعتبارات أخلاقية أو عاطفية، لأنّ (مالك) شيخ البلدية كان خطيب ابنته الأخرى التي توفيت في حادث قطار تسبّب فيه عندما كان ثائرا، وهذا ما جعل (نفسية) تعترض عليه بشدّة، "إنها لا تفكر في أن تتزوج بالبادية وتحيا فيها، فذلك أسفل ما يمكن أن ينزل إليه خيالها، وخصوصا أنّها تعرف قصّة أختها زليخة التي رضيت بالزواج من ذلك الفتى القروي مالك الثائر الذي تسبب في قتلها والذي هو الآن شيخ البلدية..." (بن هدوقة. 2012. ص30)

يبدو موقف الأب السلطوي في أسوء تمظهراته وهو يقدم ابنته الثانية للرجل نفسه الذي تسبب بمقتل الأولى في مقابل حيازته على الأراضي التي يخشى فقدانها، يقول مخاطبا زوجته "أنا قرّرت أن تتزوج وقراري قضاء إذا كنت لا تستطيعين حتى إقناع ابنتك فلماذا تصلحين." (بن هدوقة. 2012. ص106)

من المهم في هذا المقام التركيز على العمق الدلالي الذي يتجلى من خلال الرّيف بوصفه فضاء مفتوحا وواسعا، والبحث عن سرّ تحوله من مأوى إلى منفى، بحيث يضمنه النصّ كل المعاني المسيئة إليه، يحدث هذا في مقابل ما تُمدّه (نفسية) من قيم إيجابية لفضاء المدينة باعتبارها المتنفّس الذي تجد فيه حريتها بعد كانت فضاء للضياع والتّيّه كما هو الحال عند كثير من الكتّاب والشّعراء.

2.2 تحوّل المعنى في المدينة/ من الضّياح إلى الحرية:

استأثرت الرواية العربية الحديثة بتوظيف فضاء المدينة عموما باعتباره فضاء للتّيّه والضياع والتّلاشي، وغياب القيم الأخلاقية والإنسانية فيه، وهو المعنى الذي يكاد يتفق عليه أغلب الكتّاب العرب، فالمدينة على تحضّرها وانفتاحها على مختلف العلوم والتّطورات التكنولوجية إلّا أنّها تمثل الجانب السلبي للحدّثة التي أباحت كل المحرمات وخلّفت شرخا واضحا في العلاقات الاجتماعية وتراجعا أخلاقيا باديا، بل هناك من يصفها بقوله "المدينة سجن مؤبد ومنفى وعذاب وعقاب." (منصور. 1978. ص43)

يبدو هذا الموقف المعادي للمدينة نابعا من علاقة الإنسان بالواقع الذي يعيشه، وبما تقرّزه المدينة الحديثة من جمود وفوضى انعكست على طبائع النّاس وغيّرت من عاداتهم ومبادئهم، وأصبحت الآلة فيها أهم من الإنسان ف "كلّما تمدّنت أدوات الحياة استوحش الإنسان" (منصور. 1978. ص43) وازدادت شروبه، وتحوّل من مجرد إنسان منافس للإنسان الآلي، وهذه المعاني لم تكن غائبة عن فكر الروائي العربي، ولا عن متخيله، وكثير من التّصوص الروائية الجزائرية الحديثة تعاملت مع المدينة وفق هذه الرؤية السوداوية، على غرار رواية "الزّلال" ل(الطاهر وطار) التي تصوّر جانبا كبيرا من تغير الحياة في المدينة، وما انتجته من مشاكل واضطرابات، وكانت مدينة قسنطينة مسرحا لأحداثها.

كما نجدُ هذا المفهوم السلبي في روايات المبدع (عز الدين جلاوي) الذي يوظفها بوصفها منبع الشر والظلام، كما هو الحال في رواية "راس المحنة" حيث "تتقمص المدينة هنا دور البطولة فتتحول من مجرد إطار مكاني ساكن إلى شخصية أساسية تتحكم في النصّ السردى، فهي سبب كل هذه الشرور ومصدر جميع الآثام وعلةً المفاسد الاجتماعية، هي الأمور جميعاً، هي تجسيد لموت الانسان وتكريغه من أصالته." (هيمه. د.ت. ص111)

وبالعودة إلى رواية "ريح الجنوب" نقف عند معاني تناقض التّصور الحداثي للمدينة، ويظهر هذا التّحول الدّلالي مع شخصية البطلة (نفسية) بوصفها شابة في مقتبل العمر، لا تملك الخبرة الكافية في الحياة لرؤية الوجه الحقيقي للمدينة، لأنّها "ليست سوى عالم ميت، مقرف، إنّها ذات وجه مزعج لا يبعث إلّا على القلق والشعور باليأس، والاحساس بالغربة والعزلة، ويدفع بالنّفس إلى البحث الملح والمضني عن عالم مثالي نتخلص فيه من ربة وثقل واقع هذه المدينة الكبرى التي تفيض رعباً وقبحاً وعمقاً، وتتردى في مهاوي الرذيلة ووحل الخطيئة." (عقاق. 2001. ص93)

إنّ هذه المعاني هي الحقيقة المتخفية للمدينة المربعة كما سماها (بودلير)، ولكنّها في هذه الرواية تَرُدّ بوصفها فضاءً للحرية والانعتاق من سلطة الرّيف المميت، فتتحوّل المدينة بالنّسبة لشخصية نفسية فضاءً يحييها، وتستطيع من خلاله الوصول إلى أحلامها وتطلّعاتها، وتتحوّل دلالاتها من الشرّ إلى الفضيلة، ومن التّيه إلى الثبات، ومن المنفى إلى المأوى، وهذه المعاني عبّرت عنها الشخصية بقولها: "بينما في المدينة حيث في كل خطوة رجل أخرج دون أن ينكر على أحد ذلك، فلماذا الخروج هنا عيب، وهناك لا؟ أنا مسلمون وهناك ملحدون؟ أم أن المرأة تتبدّل حقيقتها من مكان إلى مكان؟" (عقاق. 2001. ص44)

تقوم نفسية بمقارنة بين (الرّيف والمدينة) على أساس ما يسمح به لشخصها باعتبارها امرأة، فتري كل القيود التي تمثلها لفظة (تمنعني) مصاحبة لتيمة الرّيف، بينما توظف عبارة (أخرج...دون أن ينكر علي أحد ذلك) مصاحبة لتيمة المدينة، لنُحيلنا من خلالها إلى الحرية التي تمنحها لها المدينة في مقابل السجن الذي يعترضها في الرّيف، فالمرأة نفسها يتغير وضعها بتغير المكان، وهذا ما يدّل على أهمية المكان في الممارسات الواقعية، فما هو محظور في القرية يتحوّل إلى مباح في المدينة، وهذا هو مفهوم الحرية بالنسبة لشابة في عمر (نفسية).

تقول (نفسية) محدثة نفسها عن أحد زملائها (رضا أجملهم وأشدهم حياء لم ينجح في الامتحان بيد أنه لا يتخلّف عن دروسه...) لو قضيتُ هذه العطلة في الجزائر لاستطعت أن ألقاه. (بن هدوقة. 2012. ص08) وتضيف: "منذ جئت من الجزائر وأنا سجيّة" فالمدينة بالنسبة لها حرية، والرّيف سجن لذلك قرّرت أن تفرّ من هذا السجن لتعيش حريتها في المدينة، فكان "الفرار هو الفكرة التي انتهت إليها نفسية، وهو الحل الذي وقع عليه اختيارها، وهو الذي أنساها بالتالي مرضها وحزنها وأعاد إليها الأمل العريض، أمل فتاة في الثامنة عشرة من العمر." (بن هدوقة. 2012. ص258)

وهكذا ظلّ الصراع بين (المدينة والريف) قائماً في رواية (ريح الجنوب)، وهو صراع انتهى بانتصار الريف الذي كان فضاء لأحداثها، ولعلّ الكاتب حين يختار فضاء معيناً ويصبغه بلون ما، ويفرشه بأثاث دون آخر.. فإنّه يرمي إلى سبر أفكار ورصد رؤى عن عصر خاص أو عن عادات وشخصيات محددة، وهذا ما يحتم علاقة منسجمة بين عنصري الفضاء والشخصية. (الأبعاد الفنيّة والإيديولوجية لفضاء في رواية الزلزال للطاهر وطار. ص215) وهنا تكمن أهمية الأحداث السردية التي نسجها (بن هدوقة) في فضاء ريفي بكل تفاصيله وشخصه وعاداته، في حين كان حضور المدينة حضوراً باهتاً عاشته الشخصية في الزمن الماضي، وتأمّلت اللجوء إليه مستقبلاً باعتباره المخلص لها، ولكن باءت محاولاتها تلك بالفشل، ليبقى الريف هو الأصل والملجأ كما هو على أرض الواقع.

خاتمة:

مارس الروائيون العرب في بداية القرن الماضي مختلف آليات التجريب الحديثة التي ساهمت في بناء العوالم السردية للنصوص الروائية، واستأثرت بالفضاء المكاني باعتباره أهم مكون من مكونات الرواية، فكانت ثنائية (الريف والمدينة) أهمها حيث أثبتت قدرتها على تغيير وتحويل قناعات الشخصيات الروائية، ليصبح المأوى منفى، ويتحوّل الضياع والتلاشي إلى حرية وحياة، وبدراسة رواية "ريح الجنوب" ل(عبد الحميد بن هدوقة) يمكن قول بالنتائج الآتية:

- ✓ مثلت ثنائية (الريف والمدينة) فضاءً مهماً في تشكيل العوالم السردية لهذا النص.
- ✓ تلتقي معالم الفضاء الريفي الذي دارت فيه أحداث الرواية مع الواقع المعيش في الأرياف الجزائرية خاصة في فترة التسعينات.
- ✓ ظهور الصراع الداخلي وتحولات المعنى بالنسبة لشخصية (نفسية) ناتج عن حقيقة معاناة المرأة العربية عامة والجزائرية خاصة في ظلّ العادات والتقاليد البالية.
- ✓ تتحوّل المدينة في فكر (نفسية) من فضاء للثي والغربة - كما يقرّ ذلك أغلب الكتاب ورواد الحداثة - إلى فضاء إيجابي تتحقق فيه الأحلام وتزدهر فيه الحياة.
- ✓ في نهاية الرواية؛ ينتصر (عبد الحميد بن هدوقة) للأصل /الفضاء الريفي -على الرغم من بشاعته في نظر البطلة التي اختارت الاستسلام - ليؤكد على زيف المدينة وفتنها المضلّة.

المراجع:

- 1- عبيدات، زهير محمود عبيدات. 2007. صورة المدينة في الشعر العربي الحديث، دار الكندي، الأردن، اربد.
- 2- عقاق، قادة. 2001. دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

- 3-صالح، صلاح. 2014. المدينة الضحلة، تثريب المدينة في الرواية العربية، منشورات الهيئة العامة لسوريا، دمشق.
- 4- برادبري، مالكوم. وما كفارلن، جيمس. 1995. الحداثة. تر: مؤيد حسن فوزي. ج1. مركز الانماء الحضاري، حلب ، سوريا.
- 5- إسماعيل، عبد العليم محمد. 2011. ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ط1. دار الفكر العربي ، القاهرة، مصر.
- 6- النابلسي، شاكرو. 1994. جماليات المكان في الرواية العربية. ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
- 7- خليل، لؤي علي خليل. السلطة والتحييزات النسقية في السرد الروائي. مج:28. ع15. جوان 2020. حوليات الآداب واللغات. جامعة محمد بوضياف. المسيلة. الجزائر.
- 8- القاسمي، علي. صورة المدينة في الأدب العربي والآداب الغربية[الشابكة]
>www.h-rah.blogspot.com <بتاريخ: 2022/03/7.
- 9- بن هدوقة، عبد الحميد. 2012. ربح الجنوب، د.ط. دار القصة للنشر، الجزائر.
- 10- منصور، مناف. 1978. الانسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، د.ط. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان.
- 11- هيمه، عبد الحميد . علامات في الإبداع. د.ط. د.س. دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 12- شرقي، منيرة . الأبعاد الفنية والإيديولوجية للفضاء في رواية الزلزال للطاهر وطار، مج1. ع02. ديسمبر 2015. مجلة النص، أم البواقي.
- 13- (صورة المدينة في الأدب الروائي).[الشابكة] مجلة فكر الثقافية
><https://www.fikrmag.com> < بتاريخ: الأربعاء 4 يناير 2023.